الاجتهاد

مجلة متخصصة تعنى بقضايا الدين والمجتمع والتجديد العربي الاسلامي

العددان الواحد والأربعون والثاني والأربعون

السنة الحادية عشرة

شتاء وربيع العام ١٤١٩هـ/١٩٩٩م

رئيسا التحرير

الفضل شلق ورضوان السيد

مدير التحرير المسؤول

محمد السماك

تصدر عن :

دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر

ص . ب . : 5581/14 ــ بيروت ــ لبنان ــ تلفون : 866666، 862205

ساقية الجنزير ــ بناية برج الكارلتون ــ الطابق الثاني

اقتحام العثمانيين للقسطنطينية: شهادة المؤرخ البيزنطي دوكاس*

حاتم الطحاوي

«أغلق عليك أبواب مدينتك، واحكم داخلها، فكل ما وراء الأسوار ملك لي»

بايزيد الأول لمانويل الثاني

(1) العلاقات التركية البيزنطية حتى سقوط القسطنطينية

امتد الصراع التركي البيزنطي إلى عدة قرون سبقت ظهور العثمانيين، حيث قام الأتراك السلاجقة بتهديد الإمبراطورية البيزنطية بشكل دائم منذ القرن الحادي عشر الميلادي ونجحوا في إلحاق هزيمة مروعة بالجيش البيزنطي، عند مانزكرت (ملاذكرد) 1071م/ 463هـ[1]، حيث سقط الإمبراطور رومانوس

(*) Ducas, Istoria Turco - Byzantina (1341-1462). Tr. by Harry J. Magoulias as Decline and fall of Byzantium to the Ottoman Turks 1341-1462. Detroit, 1975.

وهناك أيضاً ترجمة إنجليزية للفصول من 33 إلى 42 من كتاب دوكاس. أنظر:

J. R. Melville Jones, (ed. and Trans), the Siege of Constantinople 1453: Seven Contemporary Accounts, Amesterdam, 1972, pp. 56-116.

(1) عالجت العديد من المصادر البيزنطية والفارسية والعربية الانتصار التركي الكبير على الامبراطورية البيزنطية في ملاذكرد. أنظر:

Pesellus, M. Fourteen Byzantine Rules. The Chronographia of Michael Pesellus, Trans. by Sewter E.R.A., London 1966, pp. 355-59.

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي الشيباني ت. 1228م/ 630هـ)، الكامل في التاريخ، =

الرابع ديو جينيس Romanus IV Diogenes أسيراً في يد القائد السلجوقي الشهير ألب أرسلان.

وحمل سلاجقة الروم (سلاجقة قونيه) والأتراك الدانشمنديون خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين عبء الكفاح ضد البيزنطيين، حتى اختفاء إمارة قونية وظهور عدد من الإمارات التركية الصغيرة على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، التي أخذت في ذلك الوقت تقوم بتركيز اهتمامها على سياستها الأوروبية.

وهناك بعض الكتابات التي ترجع ظهور تلك الإمارات التركية الصغيرة، وعلى رأسها إمارة بني عثمان في القرن الثالث عشر الميلادي الى الزحف المغولي[1] الذي تعرضت له الهضبة التركية.

وبشهادة المؤرخين الغربيين قامت معظم هذه الإمارات على عقيدة الجهاد، وعمرت بواسطة المرابطين في العالم الإسلامي، وكان جنودها يحاربون البيزنطيين من أجل ترسيخ فكرة الإيمان[2]، كما قامت إمارة عثمان على وجه التحديد فوق موقع استراتيجي يتحكم في الطرق القادمة من القسطنطينية إلى آسيا - باعتبارهم ورثةً للتقاليد الإسلامية والسلجوقية - كانوا على دراية تامة بالنظم الإدارية، الأمر الذي سمح فيما بعد لإمارتهم الصغيرة

= ج 10، القاهرة 1274م، ص 20 ـ 21؛ ابن القلانسي (أبو يعلى حمزة ت 1160م/ 55هـ)، ذيل تاريخ دمشق، بيروت 1908، ص 99. أنظر كذلك بعض الكتب التي صدرت باللغة التركية عن موقعة ملاذكرد:

Faruk Sumer & Ali Sevim. Islam Kaynaklarina gore, Malazgirt Savasi, Ankara, 1971; Semavi Eyice, Malazgirt Savasi kaybeden, Romanos IV Diogenes, Ankara, 1971; Ali Sevim, Malazgirt, Mardan Savasi, Ankara, 1971.

(1) Gibbons, H. A. The Foundation of the Ottoman Empire. A History of the Osmanlis up to the Death of Bayezid I, 1300-1403, Oxford, 1916.

وراجع رأي المؤرخ التركي الشهير محمد فؤاد كوبريللي، الذي رفض هذه النظرية في كتابه: قيام الدولة العثمانية، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة 1993م، ص 31 ـ 43.

(2) هسى. ج. م.، العالم البيزنطي، ترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، القاهرة، 1997، ص 187.

بالتحول إلى إمبراطورية مترامية الأطراف.

ومن المفارقات التاريخية التي لا بد لنا أن نعرفها، أن العبور العثماني الأول نحو القارة الأوروبية كان بناء على طلب الإمبراطور البيزنطي يوحنا السادس كانتاكوزينوس John VI Cantacozenus (1347 ـ 1355) الذي أرسل للأمير العثماني أورخان Orchan يطلب مساعدته في الحرب الأهلية التي اشتعلت في بيزنطة، وضد منافسه يوحنا باليولوغوس John Paliologus[1]. كذلك قام يوحنا كانتاكوزينوس بتزويج الأمير التركي أورخان من ابنته الأميرة البيزنطية، في سابقة لم تشهدها العلاقات البيزنطية/ العثمانية من قبل.

وانتهز أورخان الفرصة، فأرسل قوات تتألف من عشرة آلاف مقاتل لمساعدة الإمبراطور كانتاكوزينوس. ومن هنا بدأ الاستقرار العثماني في أوروبا، فاحتلوا مدينة غاليبولي Gallipoli في العام 1354[2]، ومنها أخذوا في متابعة غزوهم لمنطقة البلقان.

وبعد نجاح العثمانيين في اكتساح منطقة البلقان، أدرك البيزنطيون الخطر الذي يتربص بهم، وحاولت السياسة البيزنطية استمالة الغرب الأوروبي من أجل الوقوف ضد الخطر العثماني. وبدأ الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوغوس في تكثيف اتصالاته بالغرب عارضاً وحدة كنيستي القسطنطينية وروما. على حين ظلت غالبية الشعب البيزنطي تؤيد كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية في رفضها سياسة يوحنا والاتحاد الكنسي مع الغرب[3]، وهو ما دفع البابوية إلى عدم

---

(1) Ducas, Op.cit., Ch. 11, p. 60; Ch. VIII, pp. 70-72; Nicol, D. The Last Centuries of Byzantium, 1261-1453, London, 1972, pp. 48-50.

(2) كانت مدينة غاليبولي Gallipoli أو Kallipolis تقع على الساحل الأوروبي من بحر مرمره شمالي Hellespont. أنظر: O.D.B., vol. 2, p. 1094-95.

(3) هسى، المرجع السابق، ص 188. وعن جذور القطعة الكبرى بين كنيستي القسطنطينية وروما. أنظر: اسحق عبيد، روما وبيزنطة من قطيعة فوشيوس حتى الغزو اللاتيني لمدينة القسطنطينية 869 ـ 1204، القاهرة، 1970.

تقديم أي دعم حقيقي للإمبراطور البيزنطي.

وعلى أية حال بدأ العثمانيين بقيادة السلطان مراد الأول 1362 ـ 1389م في توسيع دائرة نفوذهم في أوروبا على حساب الإمبراطورية البيزنطية والصرب، وأكبر دليل على ذلك انتقال البلاط العثماني من آسيا الصغرى إلى تراقيا Thrace، واستقرار السلطان العثماني منذ حوالى العام 1365 في مدينة أدريانوبل Adrianople (أدرنه الحالية). ثم نجح العثمانيون في دحر الصرب مرتين الأولى 1371 والثانية في كوسوفو 1389 التي سميت بمعركة مرج الشحارير[1]، حيث خضع الصرب والبلغار بعدها للسلطان العثماني. وأصبحت بيزنطة من الناحية العملية مرتبطة بالأتراك العثمانيين، ولم يكن الإمبراطور البيزنطي سوى مجرد تابع إقطاعي عليه أن يؤدي الالتزامات العسكرية[2].

ونجح الإمبراطور بايزيد في الاستيلاء على إقليم تساليا من الإمبراطورية البيزنطية في العام 1395م[3]، مما زاد من إحساس الإمبراطور البيزنطي مانويل الثاني بحجم الخطر العثماني.

(1) عن الانتصارات العثمانية على الصرب والبلغار في معركة كوسوفو. أنظر:
Ducas, Op.cit., Ch. II, p. 61; Nicol, Op.cit., pp. 299-301.

(2) هسي، المرجع السابق، ص 189. والفصيل Vassal الإقطاعي هو الشخص التابع للسيد Lord الإقطاعي الأوروبي القروسطي، وارتبط الطرفان بعقد السيادة والتبعية Lordship and Vassalage، الذي فرض على كل طرف منهما التزامات معينة تجاه الطرف الآخر، فعلى حين كان على السيد الالتزام بحماية أفصاله وتوفير المال والمأوى لهم، كان الأفصال ملتزمين بحماية سيدهم، والمشاركة في الحروب التي يخوضها لدى استدعائهم. أنظر: نورمان ف. كانتور، التاريخ الوسيط. قصة حضارة. البداية والنهاية، ترجمة قاسم عبده قاسم، ج 1، القاهرة 1997، ص 276 ـ 287. ويتبقى أن كتاب مارك بلوك هو أحد أهم الكتب على الإطلاق في تناوله للنظام الاقطاعي الأوروبي في العصور الوسطى. أنظر: Marc Bloch. Feudal Society, 2. Vols. London, 1982.

(3) Nicole, Op.cit., pp. 316, 319.

ولم يكن أمام الإمبراطور البيزنطي إلا أن يتوجه ـ كما فعل والده من قبل ـ نحو الغرب الأوروبي، يناشده حماية القسطنطينية، التي ظلت قروناً طويلة حصن الأمان الشرقي للعالم المسيحي، لكن موقف الإمبراطور مانويل لم يثر في الغرب سوى الشعور بالعطف.

وهكذا كانت الإمبراطورية البيزنطية على وشك السقوط النهائي في يد العثمانيين في بداية القرن الخامس عشر الميلادي، لولا تدخل القدر ليزيد من عمر بيزنطة نصف قرن آخر. فقد تنامت قوة المغول في نهاية القرن الرابع عشر تحت قيادة تيمورلنك، ولم يحاول الإمبراطور البيزنطي تجنبهم حتى ينتهي مشروعه الحربي بإسقاط القسطنطينية، لكنه سعى إلى استفزاز تيمورلنك الذي أوقع بالجيش العثماني هزيمةً مروعة في معركة أنقرة 1402[1]، بل إنه نجح في أسر السلطان العثماني بايزيد، الذي مات بعد ذلك بشهور وهو في الأسر.

اندلعت الحرب الأهلية داخل السلطنة العثمانية بعد موت السلطان بايزيد، لكن الضعف البيزنطي لم يمكّن الإمبراطورية من محاولة استرداد أراضيها وهيبتها من أيدي العثمانيين. وعندما تمكن السلطان محمد الأول من القضاء على منافسيه، قام بتكريس جهوده من أجل تقوية الجبهة الداخلية، مما أعطى الإمبراطورية البيزنطية فرصة لالتقاط أنفاسها، ولتحقيق علاقات جيدة بين الإمبراطور مانويل الثاني والسلطان محمد الأول.

واعتلى آخر الأباطرة البيزنطيين قسطنطين الحادي عشر العرش البيزنطي 1448، واستمر الشعب البيزنطي في رفضه لأية تسوية مع كنيسة روما، لدرجة أن البيزنطيين كانوا يفضلون رؤية عمائم الأتراك العثمانيين وسط القسطنطينية

(1) عن موقعة أنقرة 1402م بين المغول والعثمانيين. أنظر الفصل المثير الذي كتبه حوزيف داهموس: Dahmus, J. Seven Decisive Battles of the Middle Ages, Chicago, 1983, Ch. 8, pp. 197-226; K.P. Matschke, Die Schlacht bei Ankara und das Schicksal. Von Byzanz, Weimar, 1981.

على أن يشهدوا قلنسوات اللاتين[1].

وإبان حصار القسطنطينية وقف الجنوية (أصحاب الامتيازات التجارية في غلطة) إلى جوار الإمبراطور البيزنطي حتى النهاية. ولم يكن لدى البيزنطيين ما يمكنهم من التصدي للمدفعية التركية الحديثة. وكان على العثمانيين المكوث فترة طويلة أمام أسوار القسطنطينية قبل أن ينجحوا في فتح الثغرات بها، ولما لم يستطيع البيزنطيون ترميم الثغرات اعتلت طلائع الانكشارية أسوار المدينة بنجاح في التاسع والعشرين من مايو 1453. وكان في حوزة العثمانيين أربعة أسلحة لم يكن من السهل التغلب عليها، وهي المهارة العسكرية الفائقة، والموارد الوفيرة، والتفسخ الذي أصاب الحكام الأوروبيين المسيحيين، والأوضاع الداخلية في الإمبراطورية البيزنطية[2].

(2) دوكاس Ducas المؤرخ والكتاب

ولد المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس Michael Ducas في آسيا الصغرى وعمل معظم حياته في خدمة الجنوية أصحاب جزيرة لسبوس Lesbos[3]، وهو من أسرة عملت طويلاً في البلاط البيزنطي. وضع تاريخاً دقيقاً للفترة الواقعة

(1) Ducas, Op.cit., Ch. XXXVII, p. 210;
والحقيقة أن كراهية الشعب البيزنطي للاتين ليس مردها الخلاف الكنسي فقط، بل الخلاف السياسي والفكري أيضاً، فما يزال البيزنطيين يتذكرون ما فعلته جيوش الحملات الصليبية الثلاث الأولى بالأراضي البيزنطية في طريقها نحو الشرق الإسلامي 1096، 1147، 1189، كذلك لم يستطيعوا نسيان الامتيازات التجارية الضخمة التي حصل عليها التجار البنادقة والجنوية والبيازنة إبان أسرتي كومنينوس وانجيلوس 1081 ـ 1204، مما دعاهم إلى القيام بعدة هجمات على الأحياء اللاتينية. وأخيراً لم ينس البيزنطيون تحويل اللاتين لمسار الحملة الصليبية الرابعة من مصر إلى غزو القسطنطينية نفسها العام 1204 حيث مكثوا حتى العام 1261، عن ذلك أنظر: حاتم عبد الرحمن الطحاوي: بيزنطة والمدن الإيطالية، (العلاقات التجارية 1081 ـ 1204)، القاهرة، دار عين للنشر، 1998م.

(2) هسى، المرجع السابق، ص 192.

(3) Ducas, Op.cit., p. 28.

ما بين 1341 و1462 في خمسة وأربعين فصلاً، مستعرضاً العلاقات الخارجية للإمبراطورية البيزنطية مع الأتراك العثمانيين، ومع الصرب والمجر والبلقان، والغرب الأوروبي، كذلك تعرض دوكاس لفترة الحرب الأهلية البيزنطية، وللنشاط الاقتصادي للتجار الإيطاليين في القسطنطينية. كما أن معرفته باللغات الإيطالية والتركية فضلاً عن اليونانية أكسب أحداثه مصداقية. قدم لتاريخه بمدخل مختصر منذ بدء الخليقة، غير أنه تناول عهود الأباطرة البيزنطيين الثلاثة الأخيرين بتفصيل شديد[1].

وفي الفصول التي سنطالع ترجمتها بعد قليل (39، 40، 41)، نجد اهتمام دوكاس الشديد بكافة تفاصيل الأيام والساعات الأخيرة قبيل استيلاء العثمانيين على القسطنطينية 29 مايو 1453، وطلب السلطان العثماني محمد الثاني (الفاتح فيما بعد)، من الإمبراطور البيزنطي الحادي عشر تسليم المدينة، ورفض الإمبراطور والسناتو البيزنطي الإذعان للطلب العثماني.

وأفاض دوكاس في وصف ما يمكن تسميته الآن بالتحركات العسكرية العثمانية تحت أسوار القسطنطينية، وكذلك وصف الدفاعات البيزنطية التي انهارت وانتهت بمقتل الإمبراطور البيزنطي نفسه. كذلك اهتم دوكاس بوصف الخطوات الأولى للفاتحين العثمانيين في شوارع القسطنطينية، والإجراءات التي قاموا بها، وعمليات القتل والسبي لكافة سكان المدينة.

ويمكننا أن نلحظ مشاعر دوكاس تجاه العثمانيين، حيث يصفهم بأبشع الصفات، ولا ينسى أن يذكر قراءة بسمو الأصل البيزنطي (الروماني) على الجنس التركي (الشرير)، كما أنه غالباً ما ينعت السلطان محمد الفاتح بالطاغية، في إشارة تدل على ما يحتفظ به مؤرخنا في قلبه من كراهية تجاه ما صنعه الفاتح بالقسطنطينية، كما يظهر في كتابات دوكاس تعصبه الشديد ضد الإسلام، واستشهاده بالكثير من أسفار العهد القديم، كما أفاض أيضاً في

(1) هسى، المرجع السابق، ص 190، هامش 13 ;Ibid, Ch. 1, pp. 57-58

وصف حالة الذعر والهلع التي انتابت البيزنطيين سكان القسطنطينية لدى سقوطها في أيدي العثمانيين.

ولا بد لنا أن نشهد أن دوكاس قد سطر مرثية رائعة في سقوط القسطنطينية (الفصل XLI)، التي كانت ـ وبحق ـ أهم مدن العصور الوسطى الأوروبية على الإطلاق. ويصفها وهو في حالة حزن حقيقي «... لهفي عليك أيتها المدينة! يا قبلة أركان الكون»، ... «أيتها المدينة التي يتباهى بها المسيحيون...»، «... المدينة التي مثلت الفردوس الثاني...»، «مدينة المدائن».

وكان لمؤرخنا كل الحق في ذلك، فقد مثلت القسطنطينية بالنسبة للبيزنطيين رمزاً يصعب تجاهله، ما بالنا بسقوطه تحت سنابك العثمانيين.

وبلغت القسطنطينية مكانتها السامية انطلاقاً من وجود الإمبراطور الروماني الوحيد على عرشها، بعد نجاح القبائل الجرمانية في إسقاط الإمبراطورية الرومانية الغربية منذ وقت مبكر 476، وانقسام الغرب الأوروبي إلى عدة ممالك ذات أصول جرمانية.

وتمشياً مع الفكر المسيحي التطهري، فإن دوكاس لا يرجع سقوط القسطنطينية إلى براعة وقوة التكتيك العسكري العثماني، المدعم بالكثير من خبرات إسقاط الأسوار والمدن الأوروبية، بقدر ما يرجع سقوط المدينة إلى عدم رضاء الرب عن الشعب البيزنطي المسيحي، نتيجةً لكثرة ارتكابه للخطايا والآثام.

ويعيد دوكاس التركيز بشكل كبير على هذه الفكرة، مع قيامه بعقد مقارنة إيجابية بين غضب الرب على الشعب اليهودي من قبل، وغضبه الحالي على الشعب المسيحي، وهو في ذلك يعتمد على مراثي النبي أرميا Jermia بشكل مكثف من أجل تحقيق المقابلة التي يشير إليها بشكل واضح، بحيث ينجح في استدعاء المآسي التي حدثت لمدينة أورشليم في العصر القديم إبان عملية السبي البابلي، لتقابل الكارثة المروعة التي حاقت بالقسطنطينية

(أورشليم الجديدة) في العصر الوسيط، حيث يصف السلطان العثماني محمد الفاتح بأنه نبوخذ نصر الجديد[1].

وفي النهاية يناجي دوكاس الرب ـ بعد ـ أن يعترف بآثام وخطايا أمته ـ راضياً بحكمه وإرادته بأن يكونوا خاضعين وتابعين للعثمانيين، لكنه يتوسل إليه في نهاية الأمر ويطلب الصفح عنه وعن أمته... «إصفح عنا أيها الرب...».

الفصل التاسع والثلاثون (XXXIX)

1 ـ عندما اكتملت الاستعدادات طبقاً للخطة الموضوعة، أرسل محمد (الفاتح) رسولاً للإمبراطور القابع بالمدينة (القسطنطينية) مع الرسالة التالية:

«لقد اكتملت تجهيزات الهجوم الشامل، وجاء الوقت الذي يجب أن نحدد فيه ماذا نحن فاعلين. دعنا نترك نتيجة ذلك لله. ماذا ترى الآن؟ هل ترغب في تسليم المدينة، والرحيل في سلام إلى أي مكان تحدده برفقة حاشيتك وأهل بيتك وممتلكاتهم، تاركاً خلفك سكان المدينة مع وعد بألا نتعرض لهم بسوء؟ أم أنك سوف تختار المقاومة، وما يترتب على ذلك من فقدان لحياتك وممتلكاتك، وتفضل أن ترى الأتراك (العثمانيين) وهم يقومون بسبي شعبك، وتشتيتهم عبر أرجاء الأرض؟»

وجاء رد الإمبراطور ومجلس السناتور البيزنطي على هذه الرسالة كالتالي: ـ

«إذا ما ارتأيت، كما فعل أباؤك من قبل، وبفضل رحمة الرب، يمكنك العيش معنا في سلام، فقد كان آباؤنا بمثابة آباء لهم، واحتفظوا لهم بالكثير من الشرف، ونظروا إلى هذه المدينة (القسطنطينية) كأرض خاصة لأبيهم. وفي الوقت الذي كانت تظهر فيه بعض المشاكل بيننا وبينهم، كانوا يحضرون عبر أسوار المدينة ويتم تقديم واجب الاحترام لهم. سوف ندافع عن المدينة

(1) Ducas, Op.cit., Ch. XXXVI, pp. 203, 209.

حتى الموت، سوف نحافظ على قلاعنا وأرضنا. وكل ما يمكنك الاستيلاء عليه بدون وجه حق هو انتزاع ضريبة سنوية كبيرة، سوف نقوم بدفعها لك مقابل أن ترحل عن مدينتنا بسلام. هل أنت متيقن تماماً أنك سوف تحرز النصر في هذه الظروف. أم سوف تلحق بك الهزيمة؟ أما عن إمكانية تسليم المدينة إليك، فهذا ما لا أستطيعه ـ ولا يستطيع أي شخص آخر ـ القيام به. وبالأحرى عليك القضاء على حياتنا جميعاً. إنه قرارنا جميعاً، المقاومة... والموت عن طيب خاطر».

2 ـ عندما استمع (محمد الفاتح) لهذا الرد، شعر باليأس من سقوط المدينة (القسطنطينية) بسلام، ولهذا أصدر تعليماته للمنادين بإبلاغ كافة أفراد الجيش (العثماني) بأن ساعة اقتحام المدينة قد حانت. وأقسم أنه ليس أحب إليه من سقوط أسوار جدران هذه المدينة، وأعلن استباحة ثرواتها، وأسراها لجنوده...... «كل هذا سوف يكون من نصيبكم»، فانطلقت من حناجر جنوده صيحات الموافقة والاستحسان.

3 ـ في الهزيع الآخر من الليل، بث (محمد الفاتح) المنادين والرسل حول المعسكر مع أوامر بتجهيز المشاغل الكبيرة، ومرة واحدة تم إيقادها جميعاً. وبدأ الجميع في شدو الترانيم والصياح بلغتهم الشريرة والمقززة في مشهد غريب وعجيب، وغطى ضوء المشاعل الأرض والبحر القريب بدرجة أكبر من ضوء الشمس، بحيث وصل الضوء إلى داخل المدينة (القسطنطينية)، وإلى غلطه Galata[1]. وإلى جميع الجزر القريبة، لدرجة أنه وصل إلى جميع

(1) غلطه Galata هي مستوطنة تقع في الجانب الشمالي للقرن الذهبي في مواجهة القسطنطينية، وربما كانت بها جالية يهودية في القرن الحادي عشر الميلادي، واستولى عليها اللاتين في بداية اقتحامهم للقسطنطينية 1203 فيما يعرف بالحملة الصليبية الرابعة، وبدأ الجنوية في الحصول على امتيازات تجارية منذ العام 1267، إلى أن نجح العثمانيون في إسقاطها مع القسطنطينية 1453. أنظر: Oxford Dictionary of Byzantium, Oxford, 1991, vol. 2, pp. 814-15.

السفن والقوارب البعيدة في سكوتاري Skutari[1]. وأضاءت المشاعل سطح المياه على نحو مثير كما لو أنها مضاءة بالفعل. هل كان ذلك ضوءًا فقط، إن هذه المشاعل تجلب الضوء، لكنها أيضاً يمكن أن تتسبب في اندلاع الحرائق، وأن تقوم بتدمير كل شيء! واعتقد الرومان (البيزنطيون) أن النيران قد خبت بالمعسكر (العثماني)، فتسللوا إلى ثغرة بأسوار المدينة، وعندما شاهدوا الأتراك (العثمانيين) وهم يرقصون، وسمعوا أصواتهم المبتهجة، أمكنهم التنبؤ بما سيحدث لهم، وبقلب نادم توجهوا بصلاتهم إلى الرب «ارحمنا يا رب من غضبك، وخلصنا من أيدي الأعداء».

وأثّر هذا المشهد، وتلك الجلبة والضوضاء كثيراً في سكان المدينة (القسطنطينية)، واجتاحت الرعدة أوصالهم، فلم يتمكنوا من التقاط أنفاسهم بسهولة.

4 ـ عمل جيوفاني Giovanni[2] طوال الليل، فأمر بجمع كل الشجيرات القصيرة من المدينة، ووضعها مكان الثغرة القريبة الموجودة في السور، كذلك أقام خندقاً ثانياً من أجل الحماية إذا ما تم تحطيم السور. وأدرك الرومان (البيزنطيون) أن حركتهم سوف تكون واضحة وملفتة للانتباه، وأنهم لن يستطيعوا المرور عبر باب المدينة لمواجهة الأتراك (العثمانيين) في تحصيناتهم الخارجية، لأن الأسوار المهدمة سوف تقوم بكشفهم. وكان هناك بعض الرجال من كبار السن، الذين يعرفون أحد الانفاق أسفل الطرف المنخفض من

(1) سكوتاري Skutari، جزء من الساحل الشرقي لمضيق البوسفور في مواجهة القسطنطينية من الناحية الشرقية، وهي الآن منطقة اسكدار في الجزء الشرقي لإستانبول، وهناك مدينة أخرى في البانيا تحمل نفس الاسم. أنظر: .Webester's New Geographical Dictionary Massachusetts, 1984, p. 1093.

(2) جيوفاني جستنياني Giovanni Giustiniani قائد عسكري جنوى شهير، وصل إلى القسطنطينية في يناير 1453 على متن سفينتين حربيتين كبيرتين وبصحبة 700 مقاتل، 400 من جنوا والباقي من جزيرتي رودس وخيوس، ورحب به الإمبراطور البيزنطي لدى وصوله إلى القسطنطينية. أنظر: Ducas, Op.cit., Ch. XXXVIII, p. 211; p. 309, Not 262

القصر الذي كان قد تم إغلاقه منذ سنوات. وعندما سمع الإمبراطور بوجود هذا النفق، أمر بإعادة فتحه، بحيث يستطيع الجنود استخدامه في هجومهم المباغت، لأنه كان محمياً بجدران صلبة، بحيث تقوم المعركة مع الأتراك (العثمانيين) في الفناء الخارجي له، وكان اسم باب النفق يدعى كيركوبورتا Kerkoporta[1].

5 ـ في يوم الأحد، بدأ الطاغية (محمد الفاتح) الاشتراك في القتال، وبدأ في العمل من الصباح للمساء، بحيث لم يترك وقتاً للرومان (البيزنطيين) لكي ينعموا فيه بالراحة. وكان ذلك الأحد هو يوم عيد جميع القديسين، السابع والعشرين من شهر مايو (1453م).

6 ـ ومنذ الفجر، اشترك (محمد الفاتح) في مناوشات خفيفة حتى الساعة التاسعة من نفس اليوم (الثالثة من بعد الظهر). وبعد ذلك أخذ في تنظيم الجيش من القصر إلى البوابة الذهبية، كما قام بنشر ثمانين جندياً من بوابة زيلوبورتا Xeloporta إلى بوابة بلاتاي Platae. بينما بدأت السفن التي رابطت عند الأعمدة المزدوجة عملية الحصار البحري بداية من بوابة هورايا Horaia إلى ما وراء الأكروبوليس الخاص بديمتريوس العظيم، والممر الخلفي الذي يقع في دير هوديجبيتريا Hodegetria. كما أبحرت السفن إلى ما وراء القصر الكبير، وعبرت الميناء. وهكذا ساهمت في إتمام الحصار نوعاً ما عند الفلانجاز وبالإضافة إلى جميع أنواع التجهيزات، فقد حملت كل سفينة على متنها سلم خشبي يمكّنهم (العثمانيين) من الوثوب إلى أعلى نقطة في أسوار المدينة.

7 ـ وبمجرد غياب شمس ذلك اليوم (الاثنين 28 مايو 1453م)، تصاعدت الدعوة لنشوب المعركة (النهائية)، وكان الاستعداد للقتال هائلاً

---

(1) كان هذا الباب يسمى أيضاً زيلو كيركون Xylokerkon لأنه يقود إلى ميدان مقفر خارج القسطنطينية. أنظر: Van Millingen, A, Byzantine Constantinople: The Walls of the City and Adjoining Historical Sites, London, 1912, pp. 89-94.

وكبيراً بحق! وامتطى الطاغية (محمد الفاتح) ظهر جواده مساء الاثنين[1]، وفي مواجهة الأسوار المهدمة بدأ المعركة مع أتباعه المخلصين من الشبان وكبار السن، وكل من لديه قدرة على القتال. فكان هناك ما يزيد على عشرة آلاف (عثماني) يقاتلون قتال الأسود. فضلاً عن وجود مائة ألف رجل من الفرسان (العثمانيين) في جناحي الجيش ومؤخرته. وإلى الجنوب، وبالقرب من ميناء البوابة الذهبية، كان هناك مائة ألف مقاتل آخرين، إن لم يزيدوا عن ذلك. ومن المكان الذي يقف فيه الحاكم (محمد الفاتح) إلى أطراف القصر، كان هناك خمسين ألف مقاتل آخرين. أما المقاتلون (العثمانيون) على متن السفن وعلى القنطرة، فكانوا لا حصر لهم.

انتشر المدافعون عن المدينة (القسطنطينية) على الشكل التالي: تمركز الإمبراطور وجستنياني عند الأجزاء المهدمة من الأسوار، خارج الخط الدفاعي المكون من القضبان المترابطة في الفناء المسيج، وبرفقتهم ثلاثة آلاف من اللاتين والرومان (البيزنطيين)، بينما تمركز القائد العسكري الأعلى عند البوابة الإمبراطورية Imperial مع حوالى خمسة آلاف مقاتل. وعند الأسوار البحرية، وأعلى الحصون ذات الفتحات الممتدة من بوابة زيلوبورتا Xeloprta إلى بوابة هورايا Horaia اصطف أكثر من خمسمائة من النشابين ورماة الأقواس. ولإحكام دائرة الإتصال بين بوابة هورايا والبوابة الذهبية، تمركز رام للأقواس في كل جزء من الجدران البارزة للقلاع، أو أحد المشرفين على المدفعية، وقضوا طوال الليل يراقبون الأحداث، ولم يتسلل النوم إلى جفونهم.

9 ـ واندفع الأتراك (العثمانيون) نحو الأسوار، يحملون معهم عدداً كبيراً

---

(1) يذكر نيكولوباربارو Nicola Barbaro أن أمر الهجوم الكبير على القسطنطينية بدأ قبل فجر التاسع والعشرين من مايو بثلاث ساعات فقط. أنظر: Barbaro, N. Diary of the Siege of Constantinople 1453, Trans. by J.R. Jones, New York, 1969, p. 62.

بينما يذكر البروفيسير ستيفن رنسمان Steven Runciman أن أمر الهجوم النهائي على القسطنطينية قد أصدره محمد الفاتح في الساعة الواحدة والنصف صباحاً. أنظر:
Runciman, S., The Fall of Constantinople 1453, New York, 1965, p. 133.

من السلالم الخشبية التي تم إعدادها من قبل. وخلف موجات الهجوم، كان الطاغية (محمد الفاتح) يلوح بعصاه المعدنية، ويأمر رماة الأقواس بالتقدم نحو الأسوار، مستخدماً أسلوبي الترغيب والترهيب. وقاتل المدافعون عن المدينة (القسطنطينية) ببسالة، وبكامل طاقاتهم حتى وهم يرتدون عن أسوارها. وقام الإمبراطور بإمداد جستنياني ورجاله بالسلاح، وقاتل كل من الإمبراطور ورجاله وجستنياني ورجاله ببسالة وشجاعة.

10 ـ وكان يمكن بضربة من ضربات القدر أن يتم اختطاف النصر من أيدي الأتراك (العثمانيين)، وبدأت جيوش الرومان (البيزنطيين) في تحصين مواقعها، لكن الرب انتزع من وسط صفوفهم قائداً عسكرياً رفيع المستوى[1]، حيث أصيب بزخات من الرصاص في ذراعه من الخلف، واخترقت الدرع الحديدية التي تحمي صدره، تلك الدرع التي جرى تشكيلها على طريقة أخيليوس Achilles. فلم يستطع تحمل آلام الجرح، وقام بالبكاء بين يدي الإمبراطور وتوجه إليه بكلماته «واصل صمودك وشجاعتك، وسوف أقوم بالتراجع نحو سفينتي لأعتني بجرحي، وبعدها أعود بسرعة لممارسة القتال». إنها نفس الساعة التي تحققت فيها كلمات النبي أرميا Jeremias لليهود. «فقال لهما أرميا: هكذا تقولان لصدقيا. هكذا قال الرب آله إسرائيل. هاأنذا أرد أدوات الحرب التي بيدكم التي أنتم محاربون بها ملك بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور، وأجمعهم في وسط هذه المدينة، وأنا أحاربكم بيد ممدودة، وبذراع شديدة وبغضب وحمو وغيظ عظيم. واضرب سكان هذه المدينة الناس والبهائم معاً. بوباء عظيم يموتون. لا يترأف عليهم ولا يشفق ولا يرحم»[2]. وعندما شاهد الإمبراطور جيوفاني يتراجع وينسحب، ارتعد قلبه

(1) كان القائد الجريح هو جيوفانجي جستنياني نفسه. أنظر السطور القادمة.

(2) يستخدم المؤرخ البيزنطي دوكاس هنا سفر أرميا من العهد القديم، الإصحاح 21، 3 ـ 6 والسطر الأخير من 7. وهنا يبدأ دوكاس باستدعاء الماضي البعيد في محاولة للتشبيه بين السبي البابلي لليهود وما يمكن تسميته تجاوزاً السبي العثماني للمسيحيين العصاة والآثمين حسب رؤية المؤرخ البيزنطي. واعتمدت على الترجمة العربية للكتاب المقدس، دار الكتاب المقدس، القاهرة، 1970.

لما حدث، ومع ذلك فقد استمر الجميع في القتال بكل قواهم.

11 ـ أخذ الأتراك في التقدم تجاه الأسوار، مستخدمين دروعهم كغطاء واقي في رمى السلالم التي بحوزتهم من أجل اعتلاء الأسوار. وتم إحباط تلك المحاولة بفضل الأحجار التي قام (البيزنطيون) بإلقائها عليهم. الأمر الذي دفعهم إلى التراجع بعد النجاح الذي تحقق في صد هجومهم. وكان جميع الرومان (البيزنطيين) يحاربون بثبات إلى جانب الأمبراطور ضد الأعداء، مستخدمين جميع قوتهم من أجل منع الأتراك (العثمانيين) من المرور عبر الأسوار المهدمة، وكانوا يجهلون أن الرب قد أراد أن يتمكن الأتراك (العثمانيون) من النجاح بطريقة أخرى. وبعد أن شاهدوا النفق ـ الذي أشرنا إليه سابقاً ـ مفتوحاً وثب إليه حوالي الخمسين من أشهر عبيد الطاغية (محمد الفاتح)، وتسلقوا قمة الأسوار، وقاموا ـ في تعصب شديد ـ بقتل أي شخص قام بمواجهتهم هناك، وباغتوا الحراس المرابطين بأعلى الأسوار بإطلاق قذائف النيران عليهم في منظر يجلب الرعب...!! أما بالنسبة للرومان (البيزنطيين) واللاتين الذين نجحوا من قبل في إعاقة الهجوم السابق، ومنع تثبيت السلالم على الأسوار، فقد باغتهم الأتراك، وقاموا بتقطيع أجسادهم إرباً. بينما فضل بعضهم إغلاق عيونهم ثم قفزوا من فوق الأسوار، وأنهوا حياتهم بشكل رهيب بعد تهشم أجسادهم. وهكذا لم يعد هناك عائق أمام تثبيت السلالم على الأسوار. حيث هجم الأتراك (العثمانيون) عليها كالنسور الجارحة.

12 ـ لم يدرك الرومان (البيزنطيون) ولا الإمبراطور حقيقة ما حدث، لأن دخول الأتراك (العثمانيين) حدث على مسافة بعيدة منهم، ولأن اهتمامهم الأكبر كان بالأعداء المواجهين لهم. وكان عدد المقاتلين الأتراك (العثمانيين) الذين يمكن وصفهم بالشراسة كبيراً جداً ولا حصر له، بحيث كان يمثل نسبة 20 ـ 1 بالمقارنة مع الجنود الرومان (البيزنطيين)، وفضلاً عن ذلك كان الأخيرون لا يتمتعون بالخبرة القتالية التي تكونت لدى الأتراك (العثمانيين)،

وبالتالي فقد انصبّ اهتمامهم على مواجهة الأتراك الذين يواجهونهم على البر بشكل مباشر. وفجأة انهالت عليهم السهام من أعلى لتقتل العديد منهم، وبعدما تمكنوا من النظر ومشاهدة الأتراك (العثمانيين)، أخذوا في الهرب والفرار خلف الأسوار، ولم يتمكنوا من الدخول عبر بوابة خاريسيوس Charisios بسبب ضغط الجموع التي توجهت نحوه. واستطاع المرور منه فقط أولئك الذين تمتعوا بقوة البنية، بحيث تمكنوا من دفع ووطء الآخرين ضعاف البنية تحت أقدامهم.

وعندما شاهدت جيوش الطاغية (محمد الفاتح) مسلك الرومان (البيزنطيين)، أخذوا في الصياح بصوتٍ عال وموحد، وأخذوا في مطاردتهم إلى الداخل، حيث قاموا بقتلهم علاوة على وطئهم بالأقدام. وعندما وصلوا إلى البوابة، لم يتمكنوا من اجتيازها لكونها مغلقة تماماً بالأجساد الميتة التي انحشرت بداخلها. ودخلت الغالبية عبر الثغرات الموجودة بالأسوار، وقاموا بقطع رقاب كل من واجههم (من البيزنطيين).

13 ـ شعر الإمبراطور (البيزنطي) باليأس وانقطاع الأمل، وانتصب واقفاً، شاهراً سيفه ودرعه في يده، وبكى في تأثر شديد قائلاً «ألا يوجد هناك أحد من المسيحيين يمكنه أن يطيح برأسي؟» وكان الإمبراطور بائساً ووحيداً، وهنا قام أحد الأتراك (العثمانيين) بإصابته إصابة مباشرة، أتبعها بضربة أخرى. لكن جندياً تركياً (عثمانياً) آخر عاجل الإمبراطور بضربة قاتلة ومميتة من الخلف، تمكنت من طرحه أرضاً، فقام الجندي بقتله كأي جندي عادي، ثم تركه مكانه، لأنه لم يكن يعلم أنه الإمبراطور (البيزنطي) نفسه.

14 ـ ولم يقتل سوى ثلاثة من الأتراك (العثمانيين)، وتمكن الباقون من أخذ طريقهم نحو الداخل. وكان ذلك في الساعة الأولى من اليوم (الساعة السادسة صباحاً). ولم تكن الشمس قد أشرقت بعد. وبمجرد دخولهم (العثمانيين) المدينة، قاموا بالانتشار فيها من بوابة خارسيوس إلى القصر الإمبراطوري، وقاموا بقتل كل من قاومهم، بالإضافة إلى قتل كل من حاول الفرار بحيث تم قتل حوالى الألفين تقريباً. وكان الأتراك (العثمانيون) يشعرون

بالقلق، وافترضوا أن داخل المدينة يعجُّ ـ على الأقل ـ بحوالي الخمسين ألفاً من الجنود المقاتلين (البيزنطيين)، وبناءًا على ذلك قاموا بقتل الألفين الذين سبق ذكرهم. وعندما علموا أن عدد الجنود المدافعين عن المدينة لا يزيد على الثمانية آلاف رجل، لم يرغبوا في قتل أحد منهم، وكان هذا الجيش التركي (العثماني) لديه شغف كبير بالحصول على الأموال. فإذا ما وقع الابن في أيديهم بعد قتله لأبيه، أو الأب بعد قتله لابنه Patricide، فإنهم يطلقون سراحه مقابل ما يمنحه لهم من الذهب. كم عدد الحقائق الملتصقة بهم، أولئك الذين لم يرتكبوا أية أخطاء، بدلاً من أولئك الذين ارتكبوا الأخطاء بالفعل. وبعد انتهاء القتال قابلت بعض الأتراك (العثمانيين) الذين أشاروا إلى ما يلي «إنهم مخيفون بحق أولئك الذين يحكموننا، ولذلك كان يجب علينا قتل أولئك (الجنود) الذين قمنا بمواجهتهم أولاً، لكن بعدما أدركنا أن هناك نقصاً في عدد الرجال (في القسطنطينية)، فإننا سوف نقوم ببيعهم جميعاً كالأغنام».

15 ـ واجتاح بعض العزبان Azabs (؟) من حاشية الطاغية (محمد الفاتح)، الذين كانوا يدعون بالانكشارية Janissaries القصر الإمبراطوري، وانداح البعض منهم أيضاً نحو دير البشير العظيم Great Foreunner الذي كان يدعى كذلك دير بترا Petra، كما اقتحموا دير خورا Chora حيث وجدوا الأيقونة المتعلقة بالسيدة الطاهرة، أم الرب... أواه أيها اللسان، وأيتها الشفاه، كيف أستطيع أن أحكي ماذا حدث لهذه الأيقونة بسبب ما ارتكبناه من خطايا وآثام؟ وبينما كان المرتدون (المسلمون) متلهفين على التوجه نحو أماكن أخرى من أجل الحصول على غنائم جديدة، قام أحد الكفرة (المسلمين) بمد يده الملوثة نحو الأيقونة، ثم قام ـ بواسطة فأسه ـ بتحطيمها إلى أربع قطع صغيرة. وقام كل منهم بالحصول على الغنائم بشكل متساو، وبعد أن استولوا على الأوعية الخاصة بالدير، مضوا في طريقهم إلى الخارج.

16 ـ بعد أن قاموا (العثمانيون) بتدمير منزل البروتوسيباستوس، بدأوا في

كسر الصناديق والخزائن الحديدية المليئة بالثروات المكدسة منذ وقت بعيد، كذلك قاموا بإيقاظ النساء النبيلات من مخادعهن. كان ذلك في يوم التاسع والعشرين من مايو، وكان نوم الصباح عذباً في عيون الصبيان والعذارى، فقد باتوا ليلتهم آمنين بلا خوف، وبراحة بال مثلما فعلوا في الليالي السابقة.

17 ـ ونزلت مجموعة كبيرة منهم (العثمانيين) إلى الشارع المؤدى إلى الكنيسة العظيمة[1]. وسكنت الحركة بين الأتراك (العثمانيين) والرومان (البيزنطيين) بشكل ملفت للنظر!!

وتدفق الأتراك (العثمانيون) على المدينة (القسطنطينية) منذ ساعات الفجر الأولى، بينما لاذ سكانها بالفرار، وتوجه البعض منهم نحو منازلهم لإنقاذ أطفالهم وزوجاتهم، وتحركوا وهم ملطخين بدمائهم، عبر الساحة الإمبراطورية، وعبروا ساحة القسطنطينية، حيث سألتهم زوجاتهم: «ماذا سيحدث لنا؟» فأجابوهم وسط دموعهم الحارة «إن الأتراك (العثمانيين) يقومون بقتل الرومان (البيزنطيين) داخل أسوار المدينة». فلم يصدقن ذلك لأول وهلة. وكان الجميع يسبون ويلعنون نذير الشؤم الذي حل بهم. وفي الخلف كانت توجد بعض المجموعات الأخرى، ملطَّخةً أيضاً بالدماء، ومدركين أن كأس العقاب والغضب الإلهي قد مست شفاههم. وقام الرهبان والراهبات، وبعض الرجال والنساء، بحمل أطفالهم على أذرعتهم، تاركين منازلهم إلى المجهول الذي ينوي تدميرها أيضاً، وهرول الجميع نحو الكنيسة العظيمة، وامتلأ الشارع المؤدي إليها بأفواج من البشر في مشهد فريد!

18 ـ لماذا لجأ الجميع إلى الكنيسة العظيمة؟ لقد سمعوا منذ عدة

(1) الكنيسة العظمى Megal Ekklesia هي الاسم الحقيقي لكنيسة أيا صوفيا Hagia Sophia أو الحكمة المقدسة بالقسطنطينية، وذلك طبقاً للمؤرخين البيزنطيين في القرن الخامس الميلادي. واستخدم مصطلح الكنيسة العظيمة منذ القرن الثامن الميلادي ليعبر عن بطريركية القسطنطينية الأرثوذكسية. إلا أن الكنيسة عرفت فيما بعد وإلى الآن باسم أيا صوفيا. أنظر: O.D.B., vol. 2, pp. 867-68.

سنوات من بعض الذين ادعوا القدرة على التنبؤ، بأن قدر المدينة (القسطنطينية) أن يتم حصارها بواسطة الأتراك (العثمانيين)، الذين سوف ينجحون في اقتحامها بالقوة، وسوف يقتلون الرومان (البيزنطيين) بالقرب من عمود قسطنطين الكبير[1]، وبعد ذلك يهبط ملاك من السماء شاهراً سيفه ليخلص الإمبراطورية (البيزنطية)، ثم يقوم بتسليم السيف لشخص مجهول، تبدو عليه علامات الفقر الشديد، يقف عند عمود قسطنطين، حيث يقول الملاك له «خذ هذا السيف، وقم بالثأر لشعب الرب». وعندها يأخذ الأتراك (العثمانيون) في الهرب، بينما يأخذ الرومان (البيزنطيون) في مطاردتهم، وقتلهم، بحيث يقومون بدفعهم عن المدينة (القسطنطينية)، ومن النواحي الغربية والشرقية حتى الحدود مع بلاد فارس إلى مكان يسمى Monodendrian[2].

ولأنهم أدركوا ضرورة تحقق النبوءة قام البعض بالهرولة، وكذلك بإسداء النصح للآخرين بالهرولة أيضاً فقد كانت هناك قناعة ثابتة لدى الرومان (البيزنطيين) الذين توقعوا ما يحدث الآن من قبل، وأخذوا يجادلون «إذا ما

(1) قسطنطين العظيم، أحد أهم الأباطرة العظام للإمبراطورية البيزنطية حكم ما بين 324 و337 وقام ببناء القسطنطينية التي حملت اسمه في العام 330م، ويعد الإمبراطور الروماني الأول الذي اعترف بالمسيحية كدين رسمي للإمبراطورية الرومانية، وهناك جدل كبير حول اعتناقه المسيحية، وهل كانت تلك الخطوة ذات بعد سياسي أم ديني. عن قسطنطين العظيم أنظر: Jones, A.H.M., Constantine and the Coversion of Europe, London, 1962; MacMullen, Constantine, London, 1987; وانظر كذلك: رأفت عبد الحميد: الدولة والكنيسة «قسطنطين»، ج 2، القاهرة، 1982.

(2) لم أعثر على هذا المكان خلال فترة البحث، لكنه من الواضح أنه كان على الحدود البيزنطية/ الفارسية خلال العصور القديمة قبل الفتح الإسلامي. وبشكل عام تذكر النبوءة رغبة البيزنطين في طرد العثمانيين من الأراضي المحيطة بهم في الشرق (آسيا الصغرى) والغرب (غربي القسطنطينية والمجر وصربيا والبلقان)، وإعادتهم إلى بلاد فارس، حيث موطنهم الأصلي حسبما يعتقد الفكر البيزنطي.

تركنا عمود الصليب خلفنا، سوف يمكننا أن نتجنب الأحداث السيئة التي ستحدث في المستقبل».

كان هذا هو السبب في هرولة الجميع نحو الكنيسة العظيمة. وخلال ساعة واحدة، كان المعبد الذي يتصف باتساع مساحته، قد امتلأ بالفارين من الرجال والنساء، وكان هناك حشد كبير جداً، وصعب حصره، وانتشر الجميع بالكنيسة، بالدور السفلي والدور العلوي، وفي الفناء، وفي كل مكان، وقاموا بإغلاق أبواب الكنيسة بالمزاليج، وأخذوا في الانتظار آملين أن يتم إنقاذهم بواسطة مخلص مجهول.

19 ـ أواه أيها الرومان (البيزنطيون) البؤساء! أواه أيها التعساء!، المعبد الذي كنتم تعدونه بالأمس كهفاً ومذبحاً للهراطقة، ولم يدخله أحدكم حتى لا يقوم بتدنيسه، لأن الطقس الديني Liturgy كان يقدم بواسطة رجال الأكليروس الذين اعتنقوا فكرة الاتحاد الكنسي[1]، والآن، وبسبب الكارثة التي توشك أن تقع بكم، فإنكم تحثون الخطى بداخلها، باحثين عن أمل إنقاذكم. لكن الكارثة التي توشك أن تحدث لن تقوم بتحريك قلوبكم باتجاه السلام الروحي. كذلك إذا حدثت الفاجعة، وإذا هبط إليكم ملاك من السماء ليقول لكم «إذا وافقتم على توحيد الكنيسة وإشاعة السلام بها، فإنني سوف أقوم

(1) لم يجد البيزنطيون لديهم سوى منح الورقة الأخيرة للغرب الأوروبي، فنادى الإمبراطور البيزنطي بوحدة الكنيستين الشرقية (كنيسة القسطنطينية) والغربية (كنيسة روما)، وكل ذلك من أجل موافقة الغرب الأوروبي على مد يد العون إليه! وإنقاذ الإمبراطورية من السقوط تحت سنابك العثمانيين، لكن هذا التصرف كان يطعن البيزنطيين وكنيسة القسطنطينية في الصميم، فهي التي تعلو على كل الكنائس، ولم لا وهي كنيسة الإمبراطورية الرومانية الوحيدة، والشامخة، ورفض البيزنطيون لقرون طويلة خلت أية فكرة حول توحيد الكنيستين. وظل الحال كما هو أمام الخطر العثماني، فلم يقبل البيزنطيون إعلان وحدة الكنيستين الشرقية والغربية في دومو Duomo بفلورنسا في العام 1429. وكانت كبرياؤهم تدفعهم بحق ـ كما قال دوكاس ـ إلى قبول فكرة خضوعهم للعثمانيين، على أن يكونوا تابعين لكنيسة روما.

بطرد الأعداء من المدينة». ومع هذا فإن ذلك سيكون مجرد كذبة! فقد قال أحدهم قبل عدة أيام «من الأفضل لنا أن تسقط المدينة في أيدي الأتراك (العثمانيين) من أن تقع في قبضة الفرنجة»، إن ذلك يمثل الحقيقة تماماً.

20 ـ (استمرت) عمليات السلب والنهب، والقتل والذبح، وأخذ الأسرى من الطرقات. ووصل الأتراك (العثمانيون) إلى المعبد قبل انتهاء الساعة الأولى، وقاموا بتحطيم الأبواب المغلقة بفؤوسهم، وبعد ذلك تقدموا إلى داخل المعبد شاهرين سيوفهم اللامعة، وأمكن مشاهدة أعداد لا تحصى من البشر، وقاموا بأسرهم جميعاً، ولم يبد أيٌّ منهم أية مقاومة، وسلم الجميع أنفسهم ليساقوا كالأغنام. من يستطيع سرد الكارثة التي حدثت وزمانها ومكانها؟ من يستطيع وصف بكاء وصراخ الأطفال، دموع ونواح الأمهات، بكاء وعويل الآباء؟ والتركي (العثماني) وضيع الأصل يقوم بقتل الفتيات العذارى المتصفات بالرقة، والراهبة الطيبة التي لا تنتمي إلا للرب، يتم الآن سبيها لتصبح خاضعة لسيد آخر. وتم اختطاف الفتيات بواسطة جذبهن من جدائلهن وتم تعرية صدورهن وأكتافهن ونهودهن. وتم جمع النساء العبيد مع سيداتهن، وكذلك الأسياد من الرجال مع عبيدهم، والأرشمندريت(*) مع البوابين، الرضع الصغار، الذكور والإناث، الذين لم يتعرضوا لأشعة الشمس بعد، وبالبكاء شاهدهم آباؤهم، الجميع تم سحبهم وضربهم بالسياط، وقاموا بقيادتهم نحو مكان معين بحيث يتم الحفاظ عليهم، ثم عادوا مرة أخرى من أجل الحصول على غنائم جديدة. وكان الخاطفون، الذين سيقتص الرب منهم، في عجلة شديدة من أمرهم، فخلال ساعة واحدة كانوا قد تمكنوا من أسر الجميع، وتم ربط الأسرى الرجال بالحبال، بينما تم ربط النساء الأسيرات بقماش الأحجبة التي ارتدينها. وخرج الأسرى في أسراب كقطعان الماشية والأغنام والماعز إلى خارج المعبد، وأصبح المعبد المقدس مجرد مكان إضافي لهذا المنظر المثير للدهشة، وكان جميع الأسرى ينتحبون ويرتعشون من البكاء، في الوقت الذي لم يكن هناك

(*) الأرشمندريت Archimandrite، هو الكاهن الذي يلي الأسقف في المرتبة عند الكنائس الشرقية.

أحد يمكنه أن يعرض عليهم الرحمة.

21 ـ ماذا بعد كنوز المعبد؟ ماذا يمكن أن أقول، وكيف يمكنني أن أذكر ذلك؟ إن لساني ليلتصق في حنجرتي بشكل لا يمكنني من التنفس. في نفس تلك الساعة قام الكلاب بتحطيم الأيقونات إلى عدة أجزاء. كذلك الأمر بالنسبة للسلاسل والشمعدانات التي تغطي المذبح المقدس، وكذا المصابيح الزيتية، حيث تعرضت جميعاً للتحطيم أو للاستيلاء عليها، أما جميع الأوعية المقدسة الموجودة في الموهف(*) Sacristy المصنوعة من الذهب والفضة، وكذلك بعض الأدوات الأخرى، فقد قاموا (العثمانيون) بجمعها بشكل سريع، ثم رحلوا عن المعبد بعد أن قاموا بتخريبه، وأحالوه إلى مكان مقفر وبائس، عار من محتوياته تماماً، لدرجة أنهم لم يتركوا شيئاً خلفهم.

22 ـ تلك كلمات الرب التي تحدث بها عبر النبي عاموس AMOS، وتحققت في صهيون الجديدة «أتى يوم معاقبتي إسرائيل على ذنوبه أعاقب مذابح بيت إيل فتقطع قرون المذبح وتسقط إلى الأرض. وأضرب بيت الشتاء مع بيت الصيف فتبيد بيوت العاج وتضمحل البيوت العظيمة، يقول الرب» (سفر عاموس 3: 14 ـ 15)، «بغضب كرهت أعيادكم ولست ألتذ باعتكافاتكم. إني إذا قدمتم لي محرقاتكم وتقدماتكم لا أرتضي وذبائح السلامة من مسمناتكم لا ألتفت إليها. أبعد عني ضجة أغانيك ونغمة ربابك لا أسمع» (عاموس: 5: 21 ـ 23). «فقال لي الرب قد أتت النهاية على شعبى إسرائيل، لا أعود أصفح له بعد. فتصير أغاني القصر ولأول مرةٍ في ذلك اليوم، يقول السيد الرب. الجثث كثيرة يطرحونها في كل موضع صامتين. اسمعوا هذا أيها المتهمون المساكين لكي تبيدوا بائسي الأرض، قائلين متى رأس الشهر لنبيع قمحاً والسبت لنعرض حنطة. لنصغر الأيفة ونكبر الشاقل ونعوج موازين الغش. لنشتري الضعفاء بفضة والبائس بنعلين» (عاموس 8: 2 ـ 6) «ويكون في ذلك اليوم يقول السيد الرب إني أغيب

(*) الموهف Sacristy هي غرفة المقدسات وملابس الكهنة في الكنيسة.

الشمس في الظهر وأقتم الأرض في يوم نور. وأحول أعيادكم نواحاً وجميع أغانيكم مراثي» (عاموس 8: 9 ـ 10).

23 ـ كان ذلك اليوم البغيض والمرعب الذي سقطت فيه المدينة (القسطنطينية) هو يوم عيد القديسة الشهيدة ثيودوسيا St. Theodosia الذي كان يمثل مهرجاناً شعبياً للغاية. وفي عشية هذا الإحتفال كان العديد من الرجال والنساء يسهرون طوال الليل بجوار القبر والذخائر المقدسة. وفي الصباح كانت النساء وأزواجهن يبدون الكثير من التوقير والتبجيل للقديسة في كنيستها، حاملين القناديل المزخرفة والمزينة بالإضافة إلى البخور، وفجأة سقطوا جميعاً في فخ الأتراك (العثمانيين). كيف كان لهم أن يدركوا أن الكارثة يمكن أن تباغتهم، وأن تسقط المدينة كلها بهذا الشكل؟ أولئك الذين كانت لهم أهمية وشأن كبير، تبدلت ـ الآن ـ أحوالهم بشكل كامل!

24 ـ كان الخطر يكمن في النيران والحرائق التي اندلعت من بوابتي خاريسيوس Charisios والقديس رومانوس St. Romanos، وامتدت بالقرب من القصر، ولم تسمح المقاومة التي أبدتها السفن (البيزنطية) للأتراك (العثمانيين) بأن يمدوا الحبال التي صنعوها على الأسوار. . وكان الرومان (البيزنطيون) في وضع متفوق على الأتراك (العثمانيين)، بحيث كانوا يرمونهم بوابل من الأحجار والقذائف حتى الساعة الثالثة (التاسعة صباحاً) من نفس اليوم. وحوالي ذلك الوقت، تمكن بعض سارقي الغنائم والأسلاب (العثمانيين) من الدخول إلى المدينة. وبينما كان يمكن ملاحظة قيام معركة بين الرومان (البيزنطيين) والأتراك (العثمانيين) خارج الأسوار، فإن هؤلاء أخذوا في الصياح بكل ما يملكون من قوة، واندفعوا للسيطرة على قمة الأسوار، وعندما شاهد الرومان (البيزنطيون) أن الأتراك (العثمانيين) قد أصبحوا داخل المدينة (القسطنطينية) بالفعل، أصابهم الحزن الشديد، وانخرطوا في البكاء والعويل، وقذفوا بأنفسهم على الأسوار. وبدأت قوة الرومان (البيزنطيين) في الضعف بعد أن تم استنفادها. وعندما شاهد الأتراك (العثمانيون) من سفنهم زملاءهم يعتلون أسوار المدينة أدركوا أن المدينة قد

سقطت وقاموا بشكل سريع بتثبيت السلالم المصنوعة من الحبال، وقفزوا منها إلى الأسوار، ومن ثم قاموا بتحطيم البوابات، وقاموا بدفع الجميع (البيزنطيين) إلى وسط المدينة.

25 ـ كان القائد الأعلى (البيزنطي) مكلفاً بحراسة البوابة الإمبراطورية مع خمسمائة من رجاله، عندما رأى الأتراك (العثمانيين) يقتربون من موقعه، تخلى عن الدفاع عن البوابة، وتوجه إلى منزله بصحبة عدد من رفاقه، بينما تشتت شمل باقي الجنود الرومان (البيزنطيين)، بحيث تم أسر بعضهم قبيل وصولهم إلى منازلهم، أما البعض الآخر الذين نجحوا في الوصول إلى منازلهم، فقد اكتشفوا أن الأتراك (العثمانيين) قد سلبوا جميع ما فيها: الأطفال والزوجات، وكل شيء بها، وقبل أن يجدوا الوقت للانخراط في البكاء والنحيب، قام الأتراك (العثمانيون) بأسرهم أيضاً. أما الآخرين الذين كانوا قد وصلوا إلى منازلهم ووجدوا زوجاتهم قد تم اختطافهن، فقد تم تقييدهم في سلاسل مع أصدقائهم المقربين ومع زوجاتهم. أما الرجال والنساء العجائز الذين لم يتمكنوا من مغادرة منازلهم، سواء بسبب ضعفهم ووهنهم أو بسبب طعنهم في السن، فقد تم قتلهم بلا رحمة أو شفقة، أما الأطفال حديثو الولادة فقد قذف بهم إلى ميادين المدينة.

26 ـ عندما عاد القائد العسكري الأعلى إلى منزله، وجد أبناءه وبناته وزوجته المريضة قد احتموا بالبرج الذي كان يعيق طريق الأتراك (العثمانيين). لكنهم سقطوا جميعاً في الأسر في نهاية الأمر مع بعض رفاقهم. وأمر الطاغية (محمد الفاتح) جنوده بحراسة القائد العسكري الأعلى وجميع أهل بيته وممتلكاته. وخصص مبلغاً كبيراً من النقود الفضية للجنود (العثمانيين) الذين قاموا بحصار منزل القائد العسكري الأعلى: كمقابل للرهائن الذين حصلوا عليهم، طبقاً لليمين الذي قطعه على نفسه من قبل. وهكذا أصبح القائد العسكري الأعلى (البيزنطي) وأهل بيته تحت الإقامة الجبرية.

27 ـ وبمجرد أن دخل الأتراك (العثمانيين) إلى المدينة، تصرفوا مثل

البغالين والطهاة[1]، وحملوا الكثير من الغنائم والأسلاب.

28 ـ أما بالنسبة لجيوفاني جستنياني ـ الذي ذكرناه في تقريرنا السابق ـ فقد عاد إلى سفينته من أجل تضميد جراحه، وعندما وصل إلى الميناء قدم إليه بعض رجاله الذين فروا من المعركة تقريراً يفيد بأن الأتراك (العثمانيين) قد دخلوا المدينة بالفعل، وإن الإمبراطور (البيزنطي) قد قتل. وعندما سمع جستنياني هذه الأخبار القاسية، أمر رسله باستدعاء معاونيه من الضباط، وكذلك البحارة التابعين له بواسطة النفخ في البوق المخصص لذلك.

29 ـ واستعدت السفن الأخرى للوصول أيضاً. وفقدت معظم تلك السفن قباطنتها خلال مرحلة الاستيلاء على المدينة (القسطنطينية). وكان مشهداً يبعث على الرثاء أن نرى على ساحل الميناء رجالاً ونساء، ورهباناً وراهبات، يبكون بشكل يدعو للشفقة، ويضربون على صدورهم، يتضرعون ويناشدون أولئك الذين على متن السفن القدوم لإنقاذهم، لكن ذلك كان مستحيلاً، فقد كان كل شيء يسير حسب القضاء والقدر، وبشكل حاسم ونهائي، فكان يجب عليهم أن يشربوا حتى الثمالة من الكأس المليء بغضب الرب. وحتى إذا ما عادت السفن لمد يد المساعدة لهم؛ فإنها لم تكن لتستطيع القيام بإنقاذهم. فلن تنشغل السفن التابعة للطاغية (محمد الفاتح) بعمليات السلب والنهب التي جرت إبان اقتحام المدينة (القسطنطينية)، وبالتالي فلم تستطع أية سفينة أن تهرب من الميناء. وبعد ذلك غادر الأتراك (العثمانيون) سفنهم، ودخلوا جميعاً إلى المدينة، فانتهز السكان اللاتين الفرصة، وأبحروا بسفنهم خارج الميناء، الأمر الذي جعل الطاغية (محمد الفاتح) يشعر بالغضب الشديد، ويصر على أسنانه، لكنه كان عاجزاً عن إيقافهم، فاضطر إلى تحمل هذا الموقف العصيب.

(1) لا نعرف على وجه التحديد لماذا قام دوكاس بوصف العثمانيين الذين دخلوا القسطنطينية بسائقي البغال والطهاه، وربما كان ذلك يدل على تدني مراكز البغالين والطهاة في السلم الإجتماعي البيزنطي في القرن الخامس عشر الميلادي.

30 ـ عندما أدرك الغلطيون (سكان حي غلطه Galata) حجم الكارثة هرولوا إلى منطقة الميناء بصحبة زوجاتهم وأطفالهم، متطلعين نحو المراكب (من أجل الهرب)، وعندما وجدوا إحداها قاموا بالصعود إليها وبدأوا في التجديف حتى وصلوا إلى السفن، تاركين خلفهم منازلهم وممتلكاتهم. ونظراً لأنهم كانوا في عجلة من أمرهم، فقد سقطت العديد من الأشياء الثمينة. وكان أحد وزراء الطاغية (محمد الفاتح) دعى زاغانوس Zaganos[1]، الذي قدم له يد المساعدة في إدارة المعركة، ولهذا كان مقرباً منه (محمد الفاتح)، وقام زاغانوس باقتحام حي غلطه وهو يصيح «لا أحد يبادر بالرحيل». وأقسم برأس الطاغية (محمد الفاتح) أن يضمن الأمان للجميع قائلاً «لا داعي للخوف، إن الحاكم (محمد الفاتح) يعدكم ضمن أصدقائه، كما أن حيكم لن يصاب بأية خسائر جديدة، وفضلاً عن ذلك فسوف تحصلون على معاهدات أفضل من تلك التي حصلتم عليها سابقاً من الإمبراطور[2]، أو من جانبنا. لا يجب أن تنشغلوا بأي شيء آخر كي لا تدفعوا الحاكم (محمد الفاتح) للحنق عليكم».

وهكذا تمكن زاجانوس بواسطة تلك الكلمات من منع الفرنجة Franks سكان غلطه من الرحيل، ومع ذلك فإن بعضهم قام بالهروب من الحي إذا ما استطاع إلى ذلك سبيلا. وبعد مشاورات عدة، قام بعض الذين يحتفظون بمفاتيح القلعة، وكذلك البودستا Podesta[3] بإبداء الرغبة في الخضوع للطاغية

(1) زاغانوس Zaganos أحد مستشاري السلطان مراد من قبل إبان حروبه مع المجر. أنظر:
Ducas, Op.cit., XXXII, p. 184.

(2) عقد محمد الفاتح معاهدة مع التجار الجنوية. أنظر نص المعاهدة في:
Melville, J. The Siege of Constantinople, Seven Contemporary Accounts, pp. 136-37.

(3) البودستا Podesta هو القنصل الجنوي المسؤول عن إدارة المستوطنات الجنوية في القسطنطينية، أو في المستوطنات الجنوية في الشام في فترة الحرب الصليبية، على حين كان القنصل البندقي يسمى البايل Baille، وبشكل عام كان البودستا الجنوي مسؤولاً عن كافة ما يتعلق بالجنوية وعلاقاتهم مع الإمبراطورية البيزنطية، كما كان همزة الوصل بينهم وبين وطنهم الأم.

(محمد الفاتح)، وعندما قرروا تنفيذ ذلك، بدأوا بتسليم مفاتيح القلعة له، وبالفعل تسلم (محمد الفاتح) المفاتيح بسرور بالغ، وقام بصرف الغلطيين مع كلمات مشجعة ومساندة لهم.

31 ـ ولم تنجح سوى خمس سفن كبيرة في فرد أشرعتها والهروب من الميناء، بينما لم تستطع باقي السفن ذلك بسبب تخلي بحارتها عنها. وتم إنقاذ قباطنتها الذين لجأوا إلى السفن الأخرى، بينما سقط بعض القباطنة الآخرين في الأسر، ونجح بحارة بعض السفن في إنقاذها، وقاموا بالإبحار عبر الميناء بعد فرد الأشرعة، موجهين شكرهم للرياح الشمالية التي هبت بقوة، واستمروا في إبحارهم وهم يندبون حظ المدينة (القسطنطينية)، وأخذوا في البكاء والنحيب للكوارث التي ألمّت بالمدينة. وحدث نفس الأمر بالنسبة للسفن ثلاثية المجاديف التابعة للتجار البنادقة.

32 ـ وعندما وجد البحارة الأتراك (العثمانيين) معظم سكان المدينة (القسطنطينية) داخل الأسوار، بدأوا في جمع الرجال والنساء، وحملهم إلى متن سفنهم، بينما سيق باقي المواطنين (البيزنطيين) كالقطيع إلى خيام تقع إلى جوار بعض الحفر خارج أسوار المدينة.

الفصل الأربعون (XL)

1 ـ جرت كل هذه الأحداث بين الساعة الأولى والساعة الثامنة من نفس اليوم (من السادسة صباحاً إلى الثانية بعد الظهر)، وقام الطاغية بدخول المدينة برفقة وزرائه ومساعديه، تحيط به من الأمام والخلف مجموعة من العبيد الغلاظ والأشداء، يتمتع الواحد فيهم بمهارة في رمي السهام أفضل من أبوللو Apollo، وأكثر شباباً وحيوية من هرقل Herakleidae، ومتحمساً لتحدي عشرة رجال بمفرده.

وتقدم (محمد الفاتح) نحو الكنيسة العظيمة (أياصوفيا)، حيث ترجل عن جواده وقام بالولوج إليها مبدياً دهشته وعجبه مما يرى. وعندما وجد أحد الأتراك المتحمسين يقوم بتحطيم قطعة من رخام الكنيسة الأرضي، سأله لماذا

يقوم بتخريب أرضية الكنيسة، فأجابه أنني إنما أفعل هذا من أجل الإيمان (لأجل ديننا)، فقام (السلطان محمد الفاتح) بضرب التركي بسيفه، محذراً الجميع بأنه «يجب الكف عن عمليات سلب الغنائم والأسرى، فكل مباني المدينة وجميع ما تحتويه جدرانها هو ملك لي». وعندما قام الطاغية (محمد الفاتح) بمشاهدة الغنائم والأسلاب التي تم جمعها، والأسرى الذين لم يكن لهم حصر، أبدى ندمه وأسفه على قراره، وتم سحب التركي من قدميه، وإلقائه خارج الكنيسة بين الحياة والموت.

وقام (محمد الفاتح) باستدعاء أحد القساوسة الحقيرين والوضيعين التابعين له (أحد رجال الدين المسلمين)، لاعتلاء منبر الوعظ، من أجل إقامة صلاته الشريرة والفاسدة، وبالفعل قام ابن الخطيئة الذي لم يدن بالمسيحية، باعتلاء المذبح المقدس، إيذاناً بقيام الصلاة.

2 ـ واحسرتاه! ويا للكارثة! إن ما يحدث الآن لهو أمر رهيب ومريع!؟

وا أسفاه، ماذا حدث لنا؟ أواه! ماذا نشاهد الآن؟ التركي الكافر يقف على المذبح المقدس الذي يحتوي على الذخائر المقدسة للرسل والحواريين والشهداء، إنه لشيء مريع، أيتها الشمس! أين نور الرب، وأين الابن والكلمة الذي ينتمي للأب، والذي قدم نفسه قرباناً من أجل ذلك، لكنه لا يفنى أبداً. ويبدو أنه قد تم النظر إلينا كمخادعين ومختالين! إذ لم يعد هناك أي اعتبار لمقامنا وديانتنا بين الأمم، وبسبب الأمم، وبسبب خطايانا فإن الكنيسة التي تم إعادة بنائها تحت اسم حكمة اللوغوس من الرب، والتي دعيت باسم كنيسة الثالوث المقدس، والكنيسة العظيمة، وصهيون الجديدة، قد أصبحت الآن مذبحاً للبرابرة، وتغير اسمها وطبيعتها لتصبح منزل محمد! يا إلهي لا نريد منك سوى العدل يا ربنا.

3 ـ وعندما غادر محمد الفاتح الكنيسة، سأل عن القائد العسكري البيزنطي الأعلى، الذي تم إحضاره إليه في الحال، حيث سأله السلطان: «هل فعلت ما هو صحيح بعدم تسليمك المدينة (القسطنطينية)؟ أنظر إلى الخسائر

والتدمير والخراب الذي حدث! أنظر إلى ذلك العدد الكبير من الأسرى»! فأجابه القائد العسكري: «سيدي، ليس من سلطتي أن أقوم بتسليم المدينة لك، والإمبراطور (البيزنطي) نفسه لا يملك هذا الحق. فضلاً عن ذلك فإن بعض مبعوثيك طالبوا الإمبراطور بعدم القيام بذلك وكتبوا له بعض الكلمات المشجعة مثل: لا تخف، فلن تكون له الغلبة والسيطرة عليك. وافترض الطاغية (محمد الفاتح) أن منافسه خليل باشا هو الذي ساهم في ذلك.

وعندما سمع (السلطان) باسم الإمبراطور، سأل عنه، وهل هرب عن طريق البحر؟ فأجابه القائد العسكري (البيزنطي) بأنه لا يعلم عنه شيئاً، لأنه كان يتولى الدفاع عن البوابة الأمامية عندما اصطدم المقاتلون (العثمانيون) الذين انثالوا عبر بوابة خاريسيوس Charisios بقوات الإمبراطور. وتقدم جنديان من الجيش (العثماني) بضع خطوات إلى الأمام، وخاطب أولهما الطاغية (محمد الفاتح): «سيدي لقد قمت بقتل الإمبراطور بينما كنت أسرع لاقتحام المدينة (القسطنطينية) مع قواتي للبحث عن الأسلاب والغنائم، قمت بقتله، وتركت جثته في الخلف»، وأضاف الجندي الثاني: «لقد قمت بتوجيه الضربة الأولى بسيفي نحو الإمبراطور». وأمر الطاغية (محمد الفاتح) الجميع بالعودة للبحث عن رأس الإمبراطور (البيزنطي).

وبعد بحث قصير، تم العثور على رأس الإمبراطور، وتقديمه للطاغية (محمد الفاتح) الذي قام بتوجيه سؤاله للقائد العسكري (البيزنطي): «أخبرني ـ بكل الصدق ـ هل هذا هو رأس إمبراطوركم؟»، وبعد أن قام القائد العسكري بفحصه جيداً أجابه «نعم. . إنه هو. . يا سيدي» كما شاهده آخرون وقاموا بالتصديق على شهادة القائد العسكري.

وتم تعليق رأس الإمبراطور (البيزنطي) على عمود أغسطس، حيث ظل مكانه إلى المساء، وبعد ذلك تم حشوه بالقش (تحنيطه) وأمر محمد (الفاتح) أن يتم إرسال رأس الإمبراطور البيزنطي إلى حكام العرب وفارس، وإلى باقي الأتراك، كدليل دامغ على انتصاره على البيزنطيين.

4 ـ ذكر آخرون أنهم شاهدوا القائد العسكري مع أورخان[1] في برج القلعة الخاص بالفرنجة الذين قاموا بتسليم أنفسهم، إذ لم تكن لديهم إمكانية مقاومة الأتراك (العثمانيين). وكان هناك العديد من النبلاء من أفراد الطبقة العليا (بالقسطنطينية) بصحبة القائد العسكري. وقام أورخان بتبديل ملابسه ليبدو مثل الرهبان، وقام بالانبطاح أرضاً للوصول إلى إحدى الكوات التي يستخدمها رماة السهام في منطقة تقع خارج المدينة (القسطنطينية). وقام البحارة الأتراك بالقبض عليه، وتقييده، ثم قاموا بإلقائه في إحدى القاعات المخصصة للأسرى.

وعندما استسلم الباقون بالبرج، قام الأتراك بحملهم جميعاً إلى السفينة، وحاول أحد الأسرى الهرب عن طريق عقد صفقة مع قائد السفينة (العثماني)، مقترحاً عليه أن يسمح له بالهرب، مقابل أن يقوم بتسليمه أورخان والقائد العسكري البيزنطي الأعلى. ووعده قائد السفينة بالسماح له بالهرب، وعندما تعرف قائد السفينة على أورخان، قام بقطع رأسه، وأبقى على القائد العسكري، واصطحبهما معاً إلى الحاكم (محمد الفاتح) في كوزميديون Kosmedion، الذي كافأه بالعديد من المنح والعطايا. أمر الحاكم (محمد الفاتح) القائد العسكري الأعلى بالجلوس، وبعد أن قام بمواساته، أمر بالبحث عن زوجته وأولاده في الخنادق والقنوات والحفر، وكذلك على متن السفن، وتم العثور عليهم وإحضارهم على الفور.

وقام محمد (الفاتح) بدفع المال بواقع ألف قطعة فضية لكل أسير من أسراه، وأمر بإرسال القائد العسكري الأكبر وأسرته إلى منزلهم، وفي محاولة منه لجعله يهدىء من روعه، أبلغه: «لقد خططت لأن أعهد إليك بهذه المدينة (القسطنطينية)، بمميزاتها الوفيرة، كما أنني سوف أرفعك إلى مكانة أرفع مما كنت عليها لدى الإمبراطور البيزنطي، فلا تجزع» وعندما علم محمد (الفاتح)

---

(1) هو أورخان بن سليمان ابن السلطان بايزيد. فر إلى القسطنطينية بعد هزيمة جده أمام تيمورلنك في موقعة أنقرة 1402م، وقيام نزاع دموي عثماني على الحكم أسفر عن مقتل والده سليمان، فلم يجد أورخان بداً من اللجوء للإمبراطور البيزنطي.

منه هوية النبلاء الذين كانت لهم مكانة رسمية مميزة كموظفي القصر، قام بتسجيل أسمائهم، وبعد ذلك قام بجمعهم من السفن والخيام التي لجأوا إليها، وقام ببيعهم للأتراك العثمانيين مقابل ألف قطعة فضية لكل شخص.

5 ـ وفي الصباح التالي لذلك اليوم الأسود ـ الذي حدث خلاله تدمير تام لأمتنا ـ قام الطاغية (محمد الفاتح) بدخول المدينة (القسطنطينية)، وتوجه إلى منزل القائد العسكري الأعلى، الذي قام بتحيته والترحيب به، وبعد أن قام القائد العسكري بالانحناء إجلالاً لضيفه، قام محمد بالولوج إلى داخل المنزل، حيث كانت زوجة القائد العسكري الأعلى ترقد مريضة بالداخل، واقترب محمد من سرير السيدة المريضة، مثل الذئب الذي يرتدي ثياب الحمل، وخاطبها في لباقة «إليك تحياتي أيتها الأم، أرجو ألا تشعري بالحزن على ما جرى من أحداث، إنها إرادة الرب (الله)، وسوف أعيد إليك معظم ما فقد منك، فقط أرجو أن تستردي صحتك.» وتقدم أبناء القائد العسكري الأعلى وقاموا بالانحناء تحيةً لمحمد (الفاتح)، وأخذوا في التعبير له عن عرفانهم بالجميل، ثم رحل محمد عن المنزل ليقوم بجولة في المدينة (القسطنطينية).

كانت المدينة مهجورة تماماً، لا يوجد بداخلها إنسان أو حيوان أو طير... يمكن أن يسمع تذمره وشكواه أو حتى مجرد سماع صوته. لم يكن بها سوى بعض الغنائم والأسلاب البسيطة التي تركت مكانها، وقتل العديد من (الأتراك) عندما تشاجروا بالاختلاف حول أنصبتهم من الأسلاب والغنائم، فكان أحدهم يستولي على الغنائم من الآخر، الذي لم يكن يستطيع مقاومته، وبالتالي كان نصيبه ضربة سيف قاتلة، وفي اليوم التالي، الثلاثين من مايو (1453)، دخلت باقي القوات (العثمانية) إلى المدينة، وقامت بجمع وحصر ما جرى إهماله من الغنائم والأسلاب البسيطة.

6 ـ بعد مرور الطاغية (محمد الفاتح) بمعظم أجزاء المدينة (القسطنطينية) ـ أعلن بداية الاحتفال بإقامة مأدبة بالقرب من القصر (الإمبراطوري)، وبعد أن قام بشرب الكثير من النبيذ (!!!؟؟)، وبينما هو في

خدرة الشراب، قام باستدعاء الخصى الرئيسي التابع له وأمره قائلاً: «إذهب حالاً إلى منزل القائد العسكري الأعلى (البيزنطي)، وأخبره أن الحاكم (محمد الفاتح) يأمرك بإرسال ابنك الصغير إلى المأدبة...»، وكان ذلك الصبي وسيم الطلعة في الرابعة عشرة من عمره. وعندما سمع والده بذلك، شحب وجهه، حتى بدا كأنه يعاني من سكرات الموت، واحتج على طلب الخصي قائلاً له: «ليس من عادتنا وعرفنا أن أسلم ابني لكي يتم القبض عليه، وإنه لمن الأفضل لي إذا ما أرسل الجلاد يطلب رأسي بدلاً منه». لكن الخصى الأكبر نصحه بتسليم ابنه للطاغية (محمد الفاتح) حتى لا يغضب عليه غضباً شديداً.

ولم يقتنع القائد العسكري الأعلى بهذا، وقال للخصي «إذا أردت ابني يجب أن تقبض علي أولاً، فلن أسلمه لك بإرادتي أبداً..». وقام الخصي الأكبر بكتابة تقرير لمحمد (الفاتح) بما جرى بينه، وبين القائد البيزنطي الأعلى، فأمر محمد (الفاتح) وهو في حالة من الغضب الشديد خصيه قائلاً: «خذ معك الجلاد، واحضر معك الصبي عند عودتك.. ودع الجلاد يحضر القائد البيزنطي الأعلى وأولاده».

7 ـ وعندما وصلا (الخصي والجلاد) إلى القائد (البيزنطي) الأعلى، أعلماه بقرار محمد (الفاتح)، وقام القائد بمعانقة زوجته وأطفاله، وغادر المنزل برفقة الجلاد وابنه وابن زوجته كانتاكوزينوس. واصطحب الخصي معه الصبي لكي يراه محمد (الفاتح)، ولإخباره أيضاً أن الآخرين يقفون عند باب القصر.

وأمر محمد (الفاتح) الجلاد بقطع رؤوسهم جميعاً، فاصطحبهم الجلاد إلى طريق ضيق بجوار القصر وأخبرهم بالقرار، وعندما سمع ابن القائد العسكري قرار موته ووالده، انخرط في بكاء شديد، ولكن والده الشجاع بث فيه القوة والصلابة وبدأ في توجيه الكلام إليه: «ولدي... لقد تلاشى الأمس (الماضي) بسرعة، وكنت شاهداً على الخراب والدمار الذي حل بنا، ثروتنا التي لم تكن لتنفذ، مجدنا الرائع الذي تمتعنا به في هذه المدينة العظيمة (القسطنطينية)، ذلك المجد الذي كان موضع حسد جميع المسيحيين، كل

ذلك قد فقدناه، والآن، وفي هذه الساعة، لم يتبق لنا شيء منها، وها نحن نعيش الزمن الحاضر. لم يكن لحياتنا أن تستمر إلى الأبد، ويجب علينا أن نموت بغير شك، لكن ما هي الطريقة التي سوف نموت بها؟ قد نموت محرومين من ثرواتنا، مرتدين ثياب المجد والشرف والمسؤولية، ويجب علينا أن نستخف بكل هذا، فها نحن محتقرين ومنهكين ننتظر أن يأتينا الموت ليجرد الأحياء من مقامهم الرفيع. أين إمبراطورنا (البيزنطي)؟ ألم يقتله (العثمانيون) بالأمس؟ وأين الذي كان حاكماً محلياً كبيراً، أين القائد العسكري باليولوغوس Palaiologos وولداه؟ ألم يقتلوا بالأمس في المعركة؟ يا ليتنا متنا معهم. وكيفما كان الأمر، فإن هذه الساعة هي ساعتنا، دعنا لا نرتكب أية أخطاء أو آثام مرة أخرى، أنت تعرف أسلحة الشيطان، وإذا ظللنا هنا أحياء ألن يخرج بسهامه المسمومة؟ الساحة الآن جاهزة لنا، باسمه (المسيح) الذي صلب من أجلنا، مات، ونهض مرة أخرى، دعنا نموت مثله لنكون معه، فربما يمنحنا بعضاً من قدسيته.

عادت شجاعة الصبي إليه مرة أخرى بفضل الكلمات السابقة، وقام بتهيئة نفسه للموت، وخاطب الجلاد قائلاً «أنجز مهمتك، وابدأ بنا». وقام الجلاد بتنفيذ رغبته، وقطع عنقهما في الحال. بينما وقف القائد العسكري الأعلى يدمدم بصوت خفيض «أنا أومن بك سيدي (المسيح)، وأنت فقط سيدي»، ثم قام بتوجيه حديثه للجلاد قائلاً: هلا منحتني ـ أيها الأخ ـ بعض الوقت لإقامة صلاتي؟ كانت هناك كنيسة صغيرة بجوارهما، فتوجه إليها ـ بعد موافقة الجلاد ـ حيث أقام صلاته الأخيرة، وعندما غادر باب الكنيسة كانت جثث ولديه ما تزال تنتفض بالحياة، تقدم نفسها قرباناً وتسبح شاكرة للرب. ثم قام الجلاد بقطع رأسه بعد ذلك، والتقط رؤوس الضحايا من على الأرض، وعاد أدراجه إلى المأدبة، حيث قام بتقديمهم إلى السفاح المتعطش للدماء (محمد الفاتح)، بينما تركت الجثث مكانها.

8 ـ أرسل محمد (الفاتح) رؤساء طبقة النبلاء وموظفي القصر الذين قام بعتقهم من قبل إلى الجلاد الذي قام بدوره بقتلهم، واستثنى منهم الزوجات

والأبناء، وقام باختيار الفتيات العذارى الجميلات، والأولاد وسيمي الطلعة، وعهد بهم إلى عناية الخصي الأكبر، بينما عهد بالأسرى إلى عناية آخرين حتى يتم أخذهم إلى مصر وأدريانوبل (أدرنة الحالية).

9 ـ وإذا نظرنا إلى جميع أرجاء المدينة (القسطنطينية)، نجد أنها امتلأت بالخيام، والحفر والخنادق في مشهد غير عادي، وأصبحت مدينة مهجورة وميتة لا يسمع بها صوت، علاوة على خلوها من أية لمسة من لمسات الجمال.

الفصل الواحد والأربعون XLI

1 ـ لهفي عليك أيتها المدينة (القسطنطينية)! يا مدينة المدائن! لهفي عليك أيتها المدينة! يا قبلة أركان الكون! أيتها المدينة التي يتباهى بها المسيحيون، والتي قام البرابرة (العثمانيون) بتخريبها، يا لهفي عليك أيتها المدينة التي مثلت الفردوس الثاني، التي تم تأسيسها في الغرب، واستمرت تحتوي على العديد من الأشجار المحملة بالثمار الروحية.

2 ـ أين جمالك أيتها المدينة ـ الفردوس؟ أين النشاط الخير لفضائلك الروحية، أين أجساد الرسل والحواريين (الذخائر المقدسة)، التي تم زرعها في الفردوس دائم الخضرة؟ كان من بينها عباءة أرجوانية، ورمح واسفنجة ومزمار وحينما كنا نقوم بتقبيل تلك الذخائر المقدسة، كنا نشعر بأننا نراه، ذلك الذي عُلِّق على الصليب. وأين الذخائر المقدسة الخاصة بالقديسين والشهداء؟ ماذا تبقى من قسطنطين العظيم، والأباطرة الآخرين؟ ماذا تبقى من الطرق الواسعة والساحات، ومن الطرق المتقاطعة ومن الحقول، وماذا تبقى من بساتين الكروم المسيحية، التي تزخر بالذخائر المقدسة الخاصة بالقديسين، كذلك ببقايا ممتلكات النبلاء والأطهار، والرهبان والراهبات، يا أيها الرب. كل ذلك قد فقدناه. جثث عبيدك أيها الرب، وهبت نفسها لتكون طعاماً لطيور سماواتك، وأجساد قديسيك إلى حيوانات الأرض في صهيون الجديد، ولن نقوم بدفنهم.

3 ـ أواه أيتها الكنيسة! يا سماءنا الأرضية! أواه أيها المذبح السماوي! أواه أيتها المزارات المقدسة! أيتها الوصايا القديمة والحديثة، أيتها الألواح التي كتبت بإصبع الرب! أواه أيها الإنجيل الذي تحدث به الرب! أواه أيتها الأحاديث المقدسة للملائكة المتجسدين في البشر! أواه يا عقائد البشر أصحاب النزعات الروحية! أيتها المبادىء الأخلاقية الخاصة بالأبطال وأشباه الآلهة! أواه أيها الجسد العاقل، أيها البشر! أواه أيها الجيش الذي كان مرةً لا حصر لأعداده، وتلاشى الآن مثل سفينة تغوص في عرض البحر! أواه أيها السكان، وأيتها القصور من جميع الأنواع والذين ما زالوا أحياء كذلك، وها أنا أندب معك وأنوح، ولدي نظرة مثل نظرة النبي أرميا Jermias لما حدث في هذه المأساة.

4 ـ «كيف جلست وحدها المدينة الكثيرة الشعب. كيف صارت كأرملة، العظيمة في الأمم، السيدة في البلدان صارت تحت الجزية. تبكي في الليل بكاء ودموعها على خديها. ليس لها معز من كل محبيها. كل أصحابها غدروا بها. وصاروا لها أعداء. قد سبيت يهوذا من المذلة ومن كثرة العبودية، هي تسكن بين الأمم. لا تجد راحة. وقد أدركها طارديها في المضائق. طرق صهيون نائحة لعدم الآتين إلى العيد. كل أبوابها خربة. كهنتها يتنهدون. عذاراها مذللة وهي في مرارة. صار مضايقوها رأساً، نجح أعداؤها لأن الرب قد أذلها لأجل كثرة ذنوبها، ذهب أولادها إلى السبي قدام العدو، وقد خرج من بنت صهيون كل بهائها. صار رؤساؤها كأيائل لا تجد مرعى فيسيرون بلا قوة أمام الطارد. قد ذكرت أورشليم في أيام مذلتها وتطوحها كل مشتهياتها التي كانت في أيام القدم عند سقوط شعبها بيد العدو وليس من يساعدها، رأتها الأعداء، ضحكوا على هلاكها. وقد أخطأت أورشليم خطية، من أجل ذلك صارت رجسة. كل مكرميها يحتقرونها لأنهم رأوا عورتها، وهي أيضاً تتنهد وترجع إلى الوراء.» (مراثي أرميا، الأصحاح الأول 1 ـ 8)

5 ـ «بسط العدو يده على كل مشتهياتها، فإنها رأت الأمم دخلوا مقدسها الذين أمرت أن لا يدخلوا في جماعتك، كل شعبها يتنهدون يطلبون

خبزاً، دفعوا مشتهياتهم للأكل لأجل رد النفس. أنظر يا رب. وتطلع لأني قد صرت محتقرة». (مراثي أرميا، الأصحاح الأول 10 ـ 11)

«أما إليكم يا جميع عابري الطريق. تطلعوا وانظروا إن كان حزن مثل حزني الذي صنع بي الذي أذلني به الرب يوم حمو غضبه. من العلاء أرسل ناراً إلى عظامي. فسرت فيها. بسط شبكة لرجلي. ردني إلى الوراء جعلني خربة اليوم كله مغمومة.». (مراثي أرميا، الإصحاح الأول، 12 ـ 13)

6 ـ «رذل السيد كل مقتدري في وسطي. دعا على جماعة لحطم شباني. داس السيد العذراء بنت يهوذا معصرة». «صار بني هالكين لأنه قد تجبر العدو». (مراثي أرميا، الإصحاح الأول، 15، السطر الأخير من 16)

7 ـ «بارٌّ هو الرب لأني قد عصيت أمره. إسمعوا يا جميع الشعوب وانظروا إلى حزني. عذاراي وشباني ذهبوا إلى السبي. ناديت محبي. هم خدعوني. كهنتي وشيوخي في المدينة ماتوا إذ طلبوا لذواتهم طعاماً ليردوا أنفسهم». (مراثي أرميا، الإصحاح الأول، 18 ـ 19)

8 ـ «سمعوا أني تنهدت». (مراثي أرميا، الإصحاح الأول، 21)

9 ـ «صار السيد كعدو. ابتلع إسرائيل. ابتلع كل قصوره، أهلك حصونه وأكثر في بنت يهوذا النوح والحزن»، «حصر في يد العدو أسوار قصورها، أطلقوا الصوت في بيت الرب كما في يوم الموسم». (مراثي أرميا، الإصحاح الثاني، 5، السطر الأخير من 7)

10 ـ «أنظر يا رب وتطلع بمن فعلت هكذا. أتأكل النساء ثمرهن أطفال الحضانة. أيقتل في مقدس السيد الكاهن والنبي. اضطجعت على الأرض في الشوارع الصبيان والشيوخ. عذارى وشبان سقطوا بالسيف. قد قتلت في يوم غضبك، ذبحت ولم تشفق». (مراثي أرميا، الإصحاح الثاني، 20 ـ 21)

11 ـ «أتم الرب غيظه. سكب حمو غضبه وأشعل ناراً في صهيون فأكلت أسسها». (مراثي أرميا، الإصحاح الرابع، 11)

12 ـ «أذكر يا رب ماذا صار لنا. أشرف وانظر إلى عارنا. قد صار ميراثنا للغرباء. بيوتنا للأجانب. صرنا أيتاماً بلا أب أمهاتنا كأرامل». (مراثي أرميا، الإصحاح الخامس، 1 ـ 3)

13 ـ «على أعناقنا نضطهد. نتعب ولا راحة لنا». (مراثي أرميا، الإصحاح الخامس، 5)

14 ـ «آباؤنا أخطأوا وليسوا بموجودين ونحن نحمل آثامهم، عبيد حكموا علينا، ليس من يخلص من أيديهم». (مراثي أرميا، الإصحاح الخامس، 7 ـ 8)

15 ـ «جلودنا اسودّت كتنور من جرى نيران الجوع». (مراثي أرميا، الإصحاح الخامس، 10)

16 ـ «أخذوا الشبان للطحن والصبيان عثروا تحت الحطب، كفت الشيوخ عن الباب والشبان عن غنائمهم. مضى فرح قلبنا صار رقصاً نوحاً. سقط إكليل رأسنا. ويل لنا لأننا أخطأنا. من أجل هذا حزن قلبنا. من أجل هذه أظلمت عيوننا. من أجل جبل صهيون الخرب. الثعالب ماشية فيه. أنت يا رب إلى الأبد تجلس. كرسيك إلى دور فدور. لماذا تنسانا إلى الأبد وتتركنا طوال الأيام. أرددنا يا رب إليك فنرتد. جدد أيامنا كالقديم». (مراثي أرميا، الإصحاح الخامس، 13 ـ 22)

17 ـ المراثي السابقة التي عبر عنها النبي إرميا Jeremias لدى سقوط أورشليم القديمة، من الواضح أنها تعبر الآن خير تعبير عن سقوط أورشليم الجديدة.

18 ـ فضلاً عن ذلك، كيف يمكن للسان أن يصف كارثة سقوط المدينة (القسطنطينية) ووقوعها في الأسر، وما عانته من هجر العديد من السكان لها، الذين لم يرحلوا هذه المرة من أورشليم إلى بابل وبلاد أشور، لكنهم رحلوا من القسطنطينية إلى الشام، ومصر، وأرمينيا، وبلاد فارس، والجزيرة العربية، وكذلك رحلوا إلى افريقيا، وتفرقوا عبر إيطاليا، وآسيا الصغرى، وباقي

الأقاليم الأخرى. كيف حدث ذلك؟ كيف تم أخذ الزوج (أسيراً) إلى أقليم بافلاجونيا Paphlagonia[1]، بينما سيقت الزوجة إلى مصر، وتناثر أولادهم في أماكن أخرى، وقاموا بتبديل لسانهم من لغة إلى الأخرى، وبدلوا أحوالهم من التقوى والورع إلى مصاف الأشرار، وقاموا بتغيير عقيدتهم من اتباع الكتاب المقدس إلى اتباع كتابات خرقاء.

19 ـ «يا للرعدة! أواه أيتها الشمس! وأنت أيضاً...، أواه أيتها الأرض، فلتطلقي تنهيدة طويلة على هجران الرب التام، فهو وحده الذي يعلم ما ارتكبه جيلنا من آثام وخطايا! فنحن لا نستحق أن نرفع عيوننا نحو السماء، ويجب علينا أولاً أن ننحني حتى تلمس جباهنا الأرض، وعندها يجب علينا أن نقوم بالبكاء». «أنت فقط، يا إلهنا، وما تفعله بنا هو الحق، فقد ارتكبنا الكثير من الخطايا والآثام، كما أننا ارتكبنا العديد من أعمال الظلم والعدوان على جميع الأمم، فحق علينا حكمك بأن نكون تابعين وخاضعين، لكننا نتوسل إليك: ... إصفح عنا أيها الرب.».

(1) بافلاجونيا Paphlagonia هو إقليم بيزنطي كان يقع في شمال آسيا الصغرى بين مدينة غلاطية Galatia القديمة والبحر الأسود.